أَلسَّيد رِضا الهندي في كَوْثَرِيَّتِهِ

الأستاذ المساعد الدكتور
عبد نور داود
جامعة كربلاء - كلية التربية للعلوم الإنسانية
beoutearth@gmil.com

Mr. Reda Al Hindi In his (Kawthriea)

Asst. Prof. Dr.
Abdnoor Dawood
Karbala University - College of Education for the Humanities

الملخص:

أُسْبغت كوثرية السيد الهندي بقدسيّةٍ، نالها مدحُها للامام علي عليه السلام، فأمسكَ الأدب عن نيلها الا بتأدب، وما أشاعت ألسنتُه عنها الا المديح لها والترنّمَ بها، ولم يمسسها آلُه بنقد يُشار له ببنان إبداع، مثلها مثل غيرها من كثير تراثنا المرفوف على ما قيل عنه، في امسٍ غَبَرَهُ السكوتُ عنه.

طُبعت القصيدةُ الكوثريةُ في الأذهان، فطبعتها المطابع عشرات المرات، وتسامرت بها المجالسُ مبهورة من دون أن تَمُدَّ عليها لسانَ نقد أو أن تخطها في نقد يستكنهها وتُريناها مجساتُه وسوابرُه.

هذه هي قراءة نقدية للقصيدة الكوثرية بعيداً عن قدسية ممدوحها عليه السلام، هي قراءة لا تُسالم النص الابداعي ولا تماشيه في تبريرات تدفع عنه ما وقع به من مآخذ، بل هي قراءة تَرى النص الشعري لِتُريَ قارئَهُ ما له وما عليه.

الكلمات المفتاحية: الإمام علي، السيد الهندي، الكوثرية، المتدارك، الخبب، مديح، نسيب، محاججة، ذم.

Abstract:-

Mr. Al Hindi is a scholar and a cleric, but he is famous as a poet. It seems that they wanted him to do so. In this research we explain the reasons, and we study his most famous poems (Kawthriea). We will see this poem with a critical eye, study its money and what it means, what poems were affected by it, just as we study its subject matter and the effect of this topic on its eternity.

Keyword:- Imam Ali, Mr. Al-Hindi, Al-Kawthariya, Al-Muddark, Al-Khabab, Madih, Naseeb, Mahajjah, disgrace.

المقدمة:ـ

شاعر خرج من جبة الفقه والأصول، ومن بَيت له مقامه العالي فيهما، ومن بيئة؛ الحكم فيها لظاهر الدين وآله، فلا سبيل أمام العيش السوي فيها الا في الرضوخ لا أحكامها أو معايشتها أو التقنّع لها بها، وإلا رضَّتْه بحجارتها المادية والمعنوية التي لا حصر لعدِّها وعديدها، خاصة لَمن على رأسه عمتها او ينتسب لرؤوس عليها تلك العمة.

أوقع السيد الهندي على حياته وشعره واقع هذي البيئة، وكتب شعره في أغراض تمدحه هي عليها، وتشير له بأصابع رضاها عنه، وإن درى أنها تزاول وراء أكمات افعالها أعمالاً تقطع تلك الأصابع، ولقد دافت ودفعت البلاغة العربية التي تَوَسّلَ معانيها وبيانها وبديعها في شعره كثيراً؛ عنه التهم التي لا تليق عند تلك البيئة؛ برجل دين مثله.

أخذنا في بحثنا هذا شهيرته المسماة (الكوثرية) وزاولنا في استكناهها المنهج التكاملي لنصل به اليها، متداولينها بقراءة لم تسرْ بها الموافقة ومسايرة ماسبق، ولم يثنها عن حق النقد؛ هالة التقديس التي أحاطت بالقصيدة، فمشت بها على الالسن التي تُحرّك مدحَها وذمَّها الأهواءُ وآلُها.

أوجب – على ماتقدم – أنْ نَبني بحثنا هذا على ثلاثة مبانيَ:

– مبنى حياة الشاعر.

– مبنى تحقيق القصيدة.

– مبنى المبنى في القصيدة.

– مبنى المعنى في القصيدة.

مبنى حياة الشاعر

تنقطع سلسلة نسب السيد الهندي – على حد تنقيبنا – بجده الثاني، فـ " هو ابو احمد السيد رضا بن محمد بن هاشم بن مير شجاعة علي النقوي الرضوي الموسوي، ولد في النجف عام ١٢٩٠هـ" [1] الموافق لعام ١٨٧٣م.

أقامت نسبَهُ هذا إقامةُ جدِّه لأبيه في النجف، فاراً من الإضطهاد الإنكليزي، تاركاً

(لكهنوء) عاصمة مقاطعة (أوده) الهندية[٢]، وليس بين ايدينا مصادر تجذّر هذا النسب، او تصله بآل أرضه الأم التي نزح إلينا منها، مرد هذا لأمرين: الأول، تقصيرنا في توصيل التراث النجفي والتأصيل له، والثاني، اكتفاء هذا التراث بمخطوطات أهملها الأولاد والأحفاد على رفوف ضَنّهم بها تاركينها بعدهم إرثاً للتلف والفقد والضياع.

أبو شاعرنا " السيد محمد الهندي؛ كاد أن ينفرد بالزعامة الدينية لو لم يحدث له حادث غير ذي قيمة، ولكن منافسيه اتخذوا منه ذريعة للدعوة الى زعيم روحاني آخر، أما الحادث فهو يتعلق بحكم رؤية هلال العيد لشهر رمضان، فقد حكم السيد محمد برؤية هلال العيد ثم ثبت بعد ذلك أن العيد لم يحل، وأن الرؤية لم تثبت"[٣].

لم تكن للسيد محمد حاشية مدفوعة الأجر تدفع عنه ما وقع فيه أو وقع عليه من حيف، وليس له من أرومته في النجف، بهم يتصدى للأرومة المسيطرة على الحوزة، الفارضة قوميتها بالمد الرافد لها من الخارج والداخل، وليس له من عوام مقلديه الا الجهل الذي يصدق الأكاذيب والإفتراءات، فكان هلال رمضان خنجراً ذبح به المتربصون مكانته الدينية وأماتوا تَسنُّم غده لها، ويبدو أنَّ في قلب ولده شاعرنا السيد رضا حرقة ما حدث لوالده، فاستحضرها رائياً له موريا بفجيعة متمم بأخيه مالك بن نويرة، استحضاراً يفرض علينا أن نعيد قراءة واستقراء ماأصاب والده من ظلم.

قال رائياً أباه:

ولأبكـــين علـــى نـــواك (متممـــاً) عمـــري لأنـــك (مالـــك) لعنـــاني[٤]

لقد استعانت براعتُهُ بعلم البديع، فأخذت بالتورية، لتمرر ما أراد أن يوصله الى الغد، علً به مَن يفتح الحقُّ عليه، فيفتح ملفً والدِه، ليفتحَ بمظلوميتِهِ نارَ القصاص على ظالميه.

التفت حاضرُ شاعرنا اليه شاعرا وأجازه بالإعجاب والمديح، وضخم له، ورآى وأرى حاضره الحاكم بأمر دنيا بيئته وآخرتها؛ ولعه بعلوم البلاغة في شعره "ولعاً سما به الى منزلة قل من ارتفع اليها من قبله "[٥]، طامساً تغريض السيد بهذه العلوم، ومنها التورية، ولم يلتفت أو يُلفت لها لساناً ولا انساناً واحداً منه، لكنه ألفتَ لشاعرها عقابَه كلَّهُ، حتى نزل السيد رضا الهندي عن مكانة أبيه، ولحق حاضره ذاك وكيلاً له، في "قرية السوارية التي

سميت بالفيصيلة "[٦]، والتي "تبعد عن النجف ١٢ فرسخاً "، ماتسمى اليوم بناحية المشخاب.

أذاعوا صيته وشهروه شاعراً - لا عالم فقه وأصول -، يؤرخ الوفيات، ويكتب على ابواب الأضرحة أبياتاً يؤرخ بها أوان نصبها، فلا بأس عليهم مما أمسى عليه[٧]، مادام الشعر عندهم (نَقْص الكامل وكمال الناقص).

هُمِّش السيد رضا الهندي عن مكانته وعن مكانة أبيه، وهو الذي "في كل قدر من العلوم له مغرفة، وبكل رمز مكتوم معرفة"، وله في الفقه والأصول يد ذات صفة"[٨]، وهو الذي " نال أعلى مراتب الكمال العلمي وهو مرتبة الإجتهاد، وقد شهد له بذلك جملة من علماء النجف الأشرف لاسيما المرجع الديني العظيم السيد ابو الحسن الاصفهاني رحمه الله (سبحانه) وكذلك الشيخ محمد الشرابياني والشيخ أسد الله الزنجاني وغيرهم من العلماء الأعلام في عصر"[٩]، فغدا في ثيابِه آخر غيره، "يسرف في التدخين وفي شرب الشاي "[١٠] والجلوس في المقاهي"[١١] من "دون أن يهتم بالعُرف الذي يُنكر على العلماء الجلوس في المقاهي او المجالس العامة"[١٢].

بعيداً عنه " توفي السيد رضا الهندي يوم الاربعاء الواحد والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ه- ١٩٤٣م في الفصيلية من مرض صدري"[١٣]، وقيل "توفي بالسكتة القلبية"[١٤]، وقد "جيء به الى النجف يوم الخميس فدفن مع أبيه في داره"[١٥]، تاركاً مخطوطات تشير له عالما، ما طبع منها غير شعره[١٦]، ليبقوه بهذا الديوان شاعراً ليس غير، لا يصلح به ان يكون نداً لهم، فيما يتنازعون عليه.

نُسي السيد الرضا "عالما فاضلاً"[١٧]، وذاع صيته "أديباً شاعراً من الطبقة الممتازة من أدباء عصره"[١٨]، وعلى هذا دُرس ويُدرس.

مبنى تحقيق القصيدة:

أوجب علينا البحث الأكاديمي توثيق القصيدة الكوثرية والتأصيل لها، فتوخينا البحث عنها لنجدها في إصدارين من ديوان السيد رضا الهندي الذي جمعه السيد موسى الموسوى وراجعه وعلق عليه الدكتور السيد عبد الصاحب الموسوي، وليس لديوان السيد رضا

الهندي جمع غير هذا، وليس له تحقيق، الإصدار الأول من هذين الإصدارين؛ عن دار الاضواء، لبنان، ط١، ١٤٠٩ه - ١٩٨٨م، أما الاصدار الثاني؛ فهو عن الإصدار الأول، تكفل به انتشارات الشريف الرضي، ط١، ١٣٧٩ه، قم، ايران، كما وجدنا القصيدة منفردة في كتاب انفرد بها، عنوانه (الكوثرية الخالدة في مدح أمير المؤمنين الأمام علي عليه السلام)، شرح عبدالله الشيخ عباس الخاقاني، دار البيان العربي، بيروت،ط١، ١٤١٤ه - ١٩٩٤م، وقد استقى الشارح القصيدة من ديوان الشاعر الذي اوردناه بإصداريه في أعلاه.

القصيدة الكوثرية

السيد رضا الهندي

أَمُفَلَّجُ ثَغرِكَ أم جَوهَرْ ... ورحيقُ رِضابِكَ أم سُكَّرْ

قد قال لِثغرِكَ صانِعُهُ ... " إنَّا أعطيناكَ الكوثر "

والخالُ بِخَدِّكَ أم مِسكٌ ... نَقَّطْت به الوَردَ الأحمر

أم ذاك الخالُ بِذاك الخَّد ... فَتِيتُ النَّدِّ على مِجْمَرْ

عجَباً مِن جَمرَتِهِ تَذكُو ... وبها لا يحترقُ العَنبر

يا مَنْ تبدو لي وَفرَتُهُ ... في صُبحِ مُحيّاهُ الأَزهَر

فَأُجَنُّ به بـ "الليل إذا ... يغشى" "والصُّبحِ إذا أَسفَر"

إرحمْ أرِقاً لو لَمْ يمرُضْ ... بِنُعاسِ جُفونِكَ لَم يسهر

تَبْيَضُّ لهجْرِكَ عيناهُ ... حَزناً وأمدامُعُهُ تَحمَرْ

يا للعُشّاقِ لِمَفتون ... بِهوى رَشأٍ أحوَى أحْوَر

إنْ يَبْدُ لِذي طَرَبٍ غَنّى ... أو لاحَ لِذي نُسُكٍ كبَّرْ

آمَنْتُ هوىً بنبُوَّتِهِ ... وبِعَيْنيه سِحرٌ يُؤثَر

أَصْفَيتُ الوُدَّ لِذي مَلَلٍ ... عَيشي بِقطيعته كَدَّر

يا مَن قد آثر هِجْراني ... وعَلَيَّ بِلُقياهُ استأثَر

أَقسمتُ عليكَ بما أولَتْ ... كَ النَّضْرةُ مِنْ حُسنِ المَنظر

وبِوَجهِـــــك إذ يحمَـــــرُّ حَيـــــاً ... وبـوجـــــهِ مُحِبِّـــــكَ إذ يصْـــــفَرْ
وبِلـؤلـــــؤِ مَبسَـــــمِكَ المَنظـــــو ... مَ ولُؤلُـــــؤِ دمعِـــــيَ إذ يُـنْـثَـــــرْ
إن تَـثْـــــرُكَ هـــــذا الهجـــــرَ فليـــــ ... ـــــسَ يَليـــــقُ بِمِثالـــــيَ أن يُهجَـــــر
فاجـــــلُ الأقـــــداح بصـــــرف الـــــرا ... ح عســـــى الأفـــــراح بهـــــا تنشـــــر
واشـــــغل يمنـــــاك بصـــــب الكـــــا ... سِ وخـــــلٍّ يســـــارك للمزهـــــر
فـــــدم العنقـــــود ولحـــــن العـــــو ... د يعيـــــد الخـــــير وينفـــــي الشـــــر
بَكِّـــــرْ لِلَّهـــــوِ ونيـــــلِ الصَّفْـــــو ... فصَفْـــــوُ العـــــيشِ لِمَـــــن بَكَّـــــرَ
هـــــذا عملـــــي فاســـــلك ســـــبلي ... إن كنـــــت ثقِـــــرُّ علـــــى المنكـــــر
فلقـــــد أسرَفـــــتُ ومـــــا أَسلَفْـــــ ... ـــــتُ لِنَفـــــسيَ مـــــا فيـــــه أعـــــذَر
ســـــوَّدتُ صحيفـــــة أعمالـــــي ... ووَكَلْـــــتُ الأمـــــرَ إلـــــى حَيـــــدَر
هُـــــوَ كهـــــفيَ مـــــن نُـــــوَبِ الدُّنـــــيا ... وشفـــــيعيَ في يـــــوم المحشـــــر
قـــــد تمّـــــت لـــــي بولايتِـــــهِ ... نِـــــعَمٌ جَمَّـــــت عـــــنْ أن تُشكَـــــر
لِأُصيـــــبَ بهـــــا الحـــــظَّ الأوفـــــى ... وأُخَصَّـــــص بالسهـــــم الأوفـــــر
بالحِفـــــظِ مـــــن النّـــــار الكبـــــرى ... والأمـــــن مـــــن الفـــــزع الأكبـــــر
هـــــل يمنعُـــــني وهـــــو السّاقـــــي ... أن أشـــــرب مـــــن حـــــوض الكوثـــــر
أم يطـرُدُنـــــي عـــــن مائـــــدةٍ ... وُضِعـــــت للقانِـــــعِ والمُعتـــــَر
يـــــا مَـــــنْ قـــــد أنكـــــر مِـــــن آيـــــا ... تِ أبـــــي حســـــنٍ مـــــا لا يُنكـــــر
إن كُنـــــتَ لِجهلـــــكَ بالآيـــــا ... تِ جَحَـــــدتَ مَقـــــام أبـــــي شُبَّـــــر
فاســـــأل بـــــدراً واســـــأل أُحُـــــداً ... وسَـــــلِ الأحـــــزابَ وســـــل خيبـــــر
مَـــــنْ دَبـــــّر فيهـــــا الأمـــــرَ ومَـــــنْ ... أردى الأبطـــــال ومَـــــن دمَّـــــر
مَـــــن هَـــــدَّ حُصـــــونَ الشِّـــــركِ ومَـــــن ... شـــــادَ الإســـــلام ومـــــن عَمَّـــــر
مَـــــن قـــــدَّمَـــــهُ طـــــه وعَلـــــى ... أهـــــلِ الإيمـــــان لـــــه أمَّـــــرْ
قـــــاسُـــــوكَ أبـــــا حســـــنٍ بِســـــوا ... كَ وهـــــلْ بـــــالطَّـــــوْدِ يُقـــــاسُ الـــــذَّرْ

أَنَّـــى ســـاوَوْكَ بِمَـــن نـــاوَوْ ... كَ وهـــل ســـاوَوْا نَعـــلَيْ قَنْـــبَر
مَـــنْ غيـــرُكَ مَـــن يُـــدعى للحَـــرْ ... بِ وللمحـــــرابِ وللمِنبَـــــرْ
وإذا ذكـــــر المعـــــروف فمـــــا ... لســـواك بـــه شـــيء يـــذكر
أفعـــالُ الخيـــرِ إذا انتشـــرت ... فـــي النـــاس فأنـــتَ لهـــا مصـــدر
أَحيَيْـــتَ الـــدِّين بأبيـــضَ قـــدْ ... أوْدَعـــتَ بـــه المـــوتَ الأحمـــر
قُطْبـــاً للحـــرب يُـديـــرُ الضَّـــربَ ... ويَجـــلُو الكَـــربَ بيـــومِ الكَـــرْ
فاصـــدَع بالأمـــرِ فنـاصِـــرُك الـــ ... ـبَتَّـــارُ وشـانِئُـــك الأبتَـــرْ
لـــو لـــم تُـؤمَـــر بالصـــبر وكَظْـــ ... ـمِ الغَـيـــظِ وليتَـــكَ لم تُـؤمَـــر
مـــا آل الأمـــر الى التحكيـــ ... ـم وزايـــل موقفـــه الأشـــتر
لـكِـــنْ أَعْـــراضُ العـاجِـــلِ مـــا ... عَـلُـــقَتْ بِردائِـــك يـــا جَـوهَـــرْ
أنـــتَ المُهتَـــمُّ بحِفـــظِ الدِّيـــ ... ـنِ وغيـــرُكَ بالدُّنيـــا يَغْتَـــر
أفعـالُـــك مـــا كانـــت فيهـــا ... إلاّ ذِكـــرى لِمَـــنِ اذّكَّـــرْ
حُجَـــجاً ألزَمـــتَ بـــها الخُصَـــما ... ءَ وتَبْصِـــرةً لِمَـــن اسْتَبْصَـــر
آيـــاتُ جَلالِـــكَ لا تُحْصَـــى ... وصِـــفاتُ كمالِـــكَ لا تُحصـــر
مَـــنْ طَـــوَّل فيـــك مدائِحَـــهُ ... عـــن أدنـــى واجبـــها قَصَّـــر
فاقبَـــلْ يـــا كعبـــةَ آمالـــي ... مِـــنْ هَـــدْيِ مَـديحي مـــا استَيْسَـــر

مبنى المبنى في القصيدة:

جاء إيقاع القصيدة الكوثرية على الخبب المضمر، والخبب ايقاع خرج من بحر المتدارك، والمتدارك "سُمِّيَ بالمتدارك (بفتح الراء)؛ لأن الأخفش (الاوسط) تدارك به على الخليل الذي أهمله، وسمي بالمتدارك (بكسر الراء)؛ لأنه تدارك المتقارب أي التحق به، وذلك لأنه خرج منه بتقديم السبب على الوتد، وقيل أن الخليل لم يصل الى علمه هذا البحر، وقيل بل كان يعرفه فأهمله لأنه يغاير أصوله التي سار عليها "[١٩]، والمتدارك يقع في دائرة المتفق، لا يشاركه فيها سوى بحر واحد هو المتقارب وتفعيلاته على اصله [٢٠] هي:

فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

المتدارك على أصله هذا؛ نادر في الشعر العربي القديم، ما استفاد منه الا الشعر الحر الذي أساغه للآذان في تعدد روي القصيدة الواحدة واجتماع تام هذا البحر بمجزوئه ومشطوره ومنهوكه فيها، او الاخذ بتفعيلة واحدة او اكثر منه، بل يتعدى الحال الى اجتماعه في القصيدة الواحدة مع البحور القريبة منه، ولعل في النشيد الوطني العراقي مثالا على ذلك، هذا النشيد الذي كتبه الشاعر الفلسطيني كمال طوقان ولحنه الموسيقار اللبناني محمد فليفل عام ١٩٣٤م، نشيدا رسمياً لفلسطين حتى اعتمدت الثورة الفلسطينية غيره، ولايزال من الفلسطينيين مَن يعتبره النشيد الوطني لبلدهم، فبوركت سياساتنا التي اتتخذ نشيداً فلسطيناً حال عليه التقاعدُ نشيداً وطنياً للعراق، وطن الشعر والشعراء.

أنَّ الخبب التام الصحيح خارج من المتدارك التام الصحيح، سُمِّيَ خبباً "تشبيهاً له بالمجتث الذي هو نوع من السير في السرعة، وبالركض لأنه يحاكي صوت وقع حافر الفرس مع اللارض وضرب الناقوس، وركض الخيل وقطر الميزاب"[٢١] فتفعيلاته هي:

فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن

أما الخبب التام المضمر الذي بنى عليه السيد الهندي كوثريته؛ فتفعيلاته هي:

فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعِلُن فَعْلُن

إنَّ للخبب بنوعيه ايقاع طربي مستساغ، ترتاح له آذان مستمعيه وتألفه وتستسيغه، من دون تَكلُّف، فيه من الطرب ما يهز أعطاف سامعه، ويأخذ به انسياب إيقاعه إلى رقة لايحتاج تحصيلُها مدَّ عنقِ نَفَسِه، على أنَّ المؤكد أنَّ السيد الهندي قد تناهت اليه على ايقاع الخبب التام الصحيح؛ من قديم الشعر العربي؛ قصيدةُ الحصيري القيرواني التي مطلعها:

ياليل الصب متى غده أقيام الساعة موعده [٢٢]

ومِن عصره؛ قصيدة احمد شوقي:

مضـــــناك جفـــــاه مرقـــــده وبكـــــاه ورحَّـــــم عـــــوَّدُهُ[٢٣]

فاهتزت لهما شاعريته لتكتب الكوثرية.

أَلملفت في الايقاع الداخلي الذي يتطلب اسكتناهه اكثر من بحث مستقل؛ أن قافية الكوثرية قافية مقيدة، وهذا ما منح حرف رويّها الراء (من أحرف طرف اللسان) فخامة ومساحة تسع تكرار الحرف حال نطقه، ولو كانت القافية مطلقة لخفتت من حدة حرف الراء ولفقدنا انفجار نطقه في الفم.

إن تعويل الشاعر على علم البديع؛ زخ قصيدته بالموسيقى.

مثال منها عليه في الجناس غير التام:

فاجـــلُ الأقـــداح بصـــرف الـــرا ح عســـى الأفـــراح بهـــا تنشـــر

يُريك الجناس غير التام بين الاقداح والراح والافراح؛ موسيقى مستساغة.

مثال آخر:

فلقـــد أسرَفـــتُ ومـــا أَسلَفْـــ ـــتُ لِنَفـــسيَ مـــا فيـــه أعـــذَر

مَوْسَق الجناس الناقص البيت في الفعلين: أسرفت و اسلفت، مُثلثاً له في موسيقى حرف السين من كلمة (نفسي).

مثال ثالث:

آيـــاتُ جَلالِـــكَ لا تُحْصَـــى وصِـــفاتُ كمالِـــكَ لا تُحصـــر

جانس فيه جناساً ناقصاً بين (لا تُحصى) و (لا تُحصر)

لربما عمد الى تكرار، يراد به توكيد معنى أخدم له الايقاع الموسيقي، كما في بيته:

فاســـأل بـــدراً واســـأل أُحُـــداً وسَـــلِ الأحـــزابَ وســـل خيبـــر

ليته قال:

سَـــلْ بـــدراً عنـــه وســـل أُحُـــداً وسَـــلِ الأحـــزابَ وســـل خيبـــر

لو فعل، لَكان وافق بين صدر البيت وعجزه، ولرفع عن صدر البيت وصدورنا الفعل الثقيل (إسأل)، ولَناسق بتكرار الفعل (سل) البيت كله، ومنحه تدفق ايقاعي يُؤازر تغريضه.

الاساليب البلاغية في القصيدة الكوثرية، أحصاها كتاب (الكوثرية الخالدة) لـ عبدالله الشيخ عباس الخاقاني، إحصاءً يريح من يطلبها في دراسة اسلوبية، كما أن في هذا الإحصاء ما يرفد مَن يطلب هذه القصيدة في دراسة تفكيكية أو دراسة بنيوية.

مبنى المعنى في القصيدة

سبلت القصيدة الكوثرية المبنى الموضوعي الذي ألفته القصيدة العربية الجاهلية، فكانت كما في أدناه:

- مقدمة غزلية موغلة في النسيب والتفنن بذكر الحبيبة ومفاتنها بتعفف حتى خاطبها هذا التعفف بصيغة المذكر، وهذا مما يتوارى به الشعر العربي عن التصريح، وعليه جاءت قصيدة الحصيري القيرواني قديماً، وقصيدة أحمد شوقي حديثاً، ولعفة النسيب في الكوثرية سببان: أولهما، الغرض الديني في القصيدة، وثانيها، رجل الدين الذي كتب القصيدة.

حصد النسيب من القصيدة الأبيات السبعة الأولى، ثم انعطف شاعرها الى الشكوى والتشكي الى الحبيب، مستغرقاً من القصيدة عشرة ابيات، ثم التخلص منه الى غرض آخر هو غرض الخمر واللهو، فقال داعيا الحبيب إليهما، مقسماً عليه ببعض محاسنه:

أَقسمتُ عليكَ بما أولَتْكَ النَّضْرةُ مِنْ حُسنِ المَنظر
وبِوَجهِكَ إذ يحمَرُّ حَياً وبوجهِ مُحِبِّكَ إذ يصْفَرْ
وبِلؤلؤِ مَبسَمِكَ المَنظو مَ ولُؤلُؤِ دمعِيَ إذ يُنْثَرْ
إن تَتْرُك هذا الهجرَ فليـ ـسَ يَليقُ بِمثليَ أن يُهجَر
فاجلُ الأقداح بصرف الرا ح عسى الأفراح بها تنشر
واشغل يمناك بصب الكا سِ وخلِّ يسارك للمزهر

ليت الشاعر أوقف تشكيه على هذا البيت:

أن تتـــــرك هـــــذا الهجـــــر فليـــــ س يليـــــــق بمثلـــــــي أن يهجـــــــر

ليته حذف من قصيدته بعد هذا البيت ما يُخليها من غرض اللهو والخمر، يحذف الأبيات التي أرتناهُ (يليق بمثله أن يُهجر)، لما فيها ممّا لا يليق.

أوغل فيما نراه مكبوتاً فيه، وتمرداً على ما ضاع منه، فلا هو في اشباع جسد أُنْزِلَ الى المقاهي والعامة وحَرّمتْ عليه العمامةُ التي على رأسه؛ تناولَ متداولاتِ هذا المحيط الحسية، ولا هو في اشباع نفس سامية أُقصِيَت عن مكانةٍ، هي الأجدر بها:

فـــــدم العنقـــــود ولحـــــن العـــــو د يعيـــــد الخـــــير وينفـــــي الشـــــر

بَكِّـــــرْ لِلَّهـــــوِ ونيـــــلِ الصَّفْـــــو فصَفْـــــوُ العـــــيشِ لِمَـــــن بَكّـــــرَ

وتنحدر القصيدة بصاحبها:

هـــــذا عملـــــي فاســـــلك ســـــبلي إن كنـــــت تُقِـــــرُّ علـــــى المنكـــــر

فلقـــــد أسرَفـــــتُ ومـــــا أَسلَفْـــــ ـــــتُ لِنَفـــــسيَ مـــــا فيـــــه أعـــــذَر

الافراط في الملذات وتفريط الذات؛ أوصله الى حسن تخلص في بيت شعري تغنّى به الناس، وليس له من الدين او الخلق او العقل؛ مايقيم له أُسّاً:

ســـــوَّدتُ صحيفـــــة أعمالـــــي ووكَلْـــــتُ الأمـــــرَ إلـــــى حَيـــــدَر

تخلص بهذا البيت من غرض الخمرة وملذاتها، الى مديح الإمام علي عليه السلام، وإني لأجلُّ سيدي ومولاي امير المؤمنين عن مديح أتى قبله غرض الخمر وأتى بعده حسن تخلص كهذا البيت!!.

إتخذ المدحُ وسائل عدة في الكوثرية:

- الإقرار بالولاية طلباً للآخرة، ولنعم جمة، على لشاعر عوائدها:

هُـــوَ كهـــفيَ مـــن نُـــوَبِ الدُّنـــيا وشفـــــيعيَ في يـــــوم المحشـــــر

قـــــد تمّـــــت لـــــي بولايتِـــــهِ نِـــــعَمٌ جَمَّـــــت عـــــنْ أن تُشكَـــــر

لأُصيـــــبَ بهـــــا الحـــــظَّ الأوفـــــى وأُخَصَّـــــص بالسهـــــم الأوفـــــر

بالحِفـــظِ مـــن النّـــار الكبـــرى ... والأمـــن مـــن الفـــزع الأكبـــر
هـــل يمنعُـــني وهـــو السّاقـــي ... أن أشـــرب مـــن حـــوض الكوثـــر
أم يطـرُدُنـــي عـــن مائـــدةٍ ... وُضِعـــت للقانِـــعِ والمُعتـــَر

- محاججة جاحدي الولاية وناكري فضل امامها:

يـــا مَـــنْ قـــد أنكـــر مِـــن آيـــا ... تِ أبـــي حســـنٍ مـــا لا يُنكـــر
إن كُنـــتَ لِجهلـــكَ بالآيـــا ... تِ جَحَـــدتَ مَقـــام أبـــي شُبَّـــر
فاســـأل بـــدراً واســـأل أُحُـــداً ... وسَـــلِ الأحـــزابَ وســـل خيبـــر
مَـــنْ دَبـــّر فيهـــا الأمـــرَ ومَـــنْ ... أردى الأبطـــال ومَـــن دمَّـــر
مَـــن هَـــدَّ حُصـــونَ الشِّـــركِ ومَـــن ... شـــادَ الإســـلام ومـــن عَمَّـــر
مَـــن قـــدَّمَـــهُ طـــه وعَلـــى ... أهـــلِ الإيمـــان لـــه أمَّـــرْ

- ذم مغتصبي حق الإمام علي عليه السلام، بتعداد فضائله، والشنآن من مساواته بهم:

قاسُـــوكَ أبـــا حســـنٍ بِســـوا ... كَ وهـــلْ بـالطَّـــوْدِ يُقـــاسُ الـــذَّرْ
أَنَّـــى ســـاوَوْكَ بِمَـــن نـــاوَوْ ... كَ وهـــل ســـاوَوْا نَعـــلَيْ قَنْـــبَر
مَـــنْ غيـــرُكَ مَـــن يُـــدعى للحَـــرْ ... بِ وللمحـــــرابِ وللمِنبَـــرْ
وإذا ذكـــر المعـــروف فمـــا ... لســـواك بـــه شـــيء يـــذكر
أفعـــالُ الخيـــرِ إذا انتشـــرت ... فـــي النـــاس فأنـــتَ لهـــا مصـــدر
أَحيَيْـــتَ الـــدِّين بأبيـــضَ قـــدْ ... أوْدَعـــتَ بـــه المـــوتَ الأحمـــر
قُطْبـــاً للحـــرب يُـديـــرُ الضَّـــربَ ... ويَجـــلُو الكَـــربَ بيـــومِ الكَـــرْ
فاصـــدَع بالأمـــرِ فناصِـــرُك الـــ ... ـبَتَّـــارُ وشانِئُـــك الأبتَـــرْ

- تبرير سكوت الإمام علي عن مغتصبي حقه، بالامتثال لوصية الرسول:

لـــو لـــم تُـؤمَـــر بالصـــبر وكَظْـــ ... مِ الغَيـــظِ ولیتَـــكَ لم تُـؤمَـــر
مـــا آل الأمـــر الى التحكيـــ ... م وزايـــل موقفـــه الأشـــتر

لكِـــنْ أَعْـــراضُ العـاجِـــلِ مـــا ... عَـلُـــقَتْ بِردائِـــكَ يـــا جَـوهَـــرْ
أنـــتَ المُهتَـــمُّ بحِـفـــظِ الدِّيـــ ... ـــنِ وغيـــرُكَ بالدُّنيـــا يَغْتَـــرّ
أفعالُـــكَ مـــا كانـــت فيـهـــا ... إلاّ ذِكـــرى لِمَـــنِ اذّكَّـــرْ
حُجَـــجاً ألزَمـــتَ بـــها الخُصَـــما ... ءَ وتَبْصِـــرةً لِمَـــن اسْتَبْصَـــر

التمهيد ببيتين بررا تقصير الشاعر في مدح الامام، بعدهما اسكت قصيدته، وكأنه أراد بهذا التبرير أن يُحسن خاتمتها:

آيـــاتُ جَلالِـــكَ لا تُحْصَـــى ... وصِـــفاتُ كمالِـــكَ لا تُحصـــر
مَـــنْ طَـــوَّل فيـــك مدائِحَـــهُ ... عـــن أدنـــى واجبـــها قَصَّـــر
فاقبَـــلْ يـــا كعبـــةَ آمالـــي ... مِـــنْ هَـــدْيِ مَـديحي مـــا استَيْسَـــر

إن مقدمة القصيدة مابرحت تمارس تمويهها على قارئها البسيط المفعم بالعاطفة الجياشة لمن قيلت مدحاً فيه، فلا يحسبها غزلاً بل يحسبها مدحاً للامام علي عليه السلام، أخذه الى هذا الحسبانِ التضمينُ القراني في البيت الثاني:

قـــد قـــال لِثغـــرِكَ صانِعُـــهُ ... " إنَّـــا أعطينـــاكَ الكوثـــر "

فساقي الكوثر، لقب للامام علي عليه السلام عند الشيعة والسنة[٢٤]،

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: " يا علي، أنت أخي ووزيري وصاحب لوائى في الدنيا والاخرة، وأنت صاحب حوضي، من أحبك أحبني، ومن أبغضك أبغضني"[٢٥]

إن السيد الهندي؛ ستر مكانته الدينية بهذا البيت، وبالتضمين القرآني، نائياً بنفسه عن ألسنَة محيطه الذي يرى في هذا الغزل شَيْناً على مكانته الدينية، وقد نجح في هذا حتى ظُنت المقدمة في الامام علي عليه السلام، بل تعدى هذا الظنّ شارحُ القصيدة، وأزاغه التضمين القراني فرأت بصيرته أن المقدمة في مدح الرسول الاعظم عليه وعلى اله صلوات ربهم، ليُسَطِّرَ مطمئناً: " يبدأ الشاعر السيد رضا الهندي رحمه الله (سبحانه) قصيدته الكوثرية بمدح مولانا رسول الله صلى الله (سبحانه) عليه وآله معدداً بعضاً من صفاته الجمالية في ثغره الشريف وطلعته البهية المباركة"[٢٦].

لعل هذا البيت مما شارك في مخادعة الشارح:

آمَنْـــتُ هـــــوىً بـنـبـوُّتِـــــهِ وبِـعَـيْـنيـــــه سِحـــــرٌ يـُؤثَـــــر

خدعته (بنبوته) هذه من دون أن يلتفت الى كلمة (هوى)، والايمان بالرسول لا يأتي عن هوى، إنما أراد الشاعر (بنبوَّته) تبليغ الحبيب مأ أوحى له الله سبحانه من جمال وهذا من المجاز، يؤكد قولنا هذا عجز البيت، فحاشا لرسولنا الكريم من السحر ومن أن يكون "بِعَيْنيه سِحرٌ يُؤثَر".

السيد الهندي في مقدمة قصيدته شاعر رقيق كتبه الشعر، أما في سواها فلا شعر ولا شاعر، بل نظم، ناظمه في جبة وعمَّة دينية.

ينتهي شعر القصيدة عند هذا البيت على علَّة ما فيه من منطق:

ســـــوَّدتُ صحيفـــــة أعمالـــــي ووَكَلْـــتُ الأمـــرَ إلـــى حَيـــدَر

بعده يتمكن العقل من القصيدة، وينأى بها عن الشعرية الى النظم وجفافه وتكلّفه، حتى يهبط في ابياتٍ منها الى حد الاسفاف:

وإذا ذكـــــر المعـــــروف فمـــــا لســـــواك بـــــه شـــــيء يـــــذكر

فليس في (شيء يذكر)، سوى سد قافية ليس غير.

نظم حجج أحيا حضورها في النفوس ممدوحُ القصيدة ولم يحيها الشعر.

حضر التدوير في ابيات كثيرة من القصيدة، مثلما حضر التضمين بمعناه العروضي متجسداً نظماً في إلقاء الحجة وسرد احداث تاريخية، أو في التبرير احياناً كما في هذين البيتين:

لـــو لـــم تُـؤمَـــر بالصـــبر وكَظْـــ مِ الغَـيـــــظِ وليتَـــــكَ لم تُـؤمَـــــر

مـــــا آل الأمـــــر الى التحكيـــــ م وزايـــــل موقفـــــه الأشـــــتر

أخدم السيد الهندي التدوير والتضمين في قصيدته هذه؛ لحجج أكل الألسنَ تكرارُها في بيئته، فما زاد بهما إلا النقصان الفني في القصيدة، مكرساً ابتعادها عن الشعر الذي ابتدأت

به الى النظم الذي انتهت إليه.

إن هذا البحث قد فرضت عجالتُهُ الأيجازَ الذي يفرضه النشر ومشاغل كثرت وناء بها صاحبها، فما هذه الا قراءة أولى؛ لها ما يتبعها من نقد يستقرئ ايقاعَي الكوثرية الخارجي والداخلي ويسبرهما وصولاً الى نسوغها.

بين يدَي ربي سبحانه حمدي وشكري على نعمٍ، دون احصاءِ بعضها عجزي كله، كفى بربوبيته لي فخرا، وكفى بعبوديتي له عزا.

هوامش القصيدة

(١) هكذا عرفتهم: ص٣٢، وينظر اعيان الشيعة: المجلد السابع ٢٤، وينظر الطليعة من شعراء الشيعة: ج١ص٣٤٥.

(٢) هكذا عرفتهم: ص٣٢.

(٣) م.ن:ص ٣٢.

(٤) هذا البيت اورد ه الخاقاني وغيره في رثاء ابيه واورده ديوانه في رثاء اخيه، في قصيدة واحدة رثى بها اباه وامه وأخاه، واراه في ابيه، على يقين إزاحة في ترتيب البيت في القصيدة بإصدارَي الديوان، ولعل في هذا أكمة، وراءها من وراءها، ينظر ديوان السيد رضا الهندي: ص١١٧ وينظر هكذا عرفتهم ٣٧، وينظر شعراء الغري: ج٤ص٨٣.

(٥) ديوان السيد رضا الهندي، انتشارات الشريف الرضي، تقديم: ص١١.

(٦) هكذا عرفتهم: ٣٢.

(٧) ينظر: ديوان السيد رضا الهندي، انتشارات الشريف الرضي، تقديم: ص١٢.

(٨) الطليعة من شعراء الشيعة ج١ص٣٤٥.

(٩) الكوثرية الخالدة، ص:١٤.

(١٠) هكذا عرفتهم: ص٣٣.

(١١) م.ن: ٣٥.

(١٢) م.ن: ٣٥.

(١٣) الطليعة من شعراء الشيعة ج١ص٣٥٥.

(١٤) أعيان الشيعة: م٧، ٢٤.

(١٥) الطليعة من شعراء الشيعة، ج١ص٣٥٥.

(١٦) ينظر: ديوان السيد رضا الهندي، انتشارات الشريف الرضي، تقديم: ص١٠-١١.
(١٧) أعيان الشيعة: م٧، ص:٢٤.
(١٨) م.ن:ص٢٤.
(١٩) فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي، ص:١٩٥.
(٢٠) ينظر: القسطاس المستقيم في علم العروض، ص:٢٣١.
(٢١) م.ن: ٢٣١.
(٢٢) أحلى عشرين قصيدة حب في الشعر العربي، ص: ٢٠٤.
(٢٣) ديوان احمد شوقي، ص:١٢٢.
(٢٤) الدرر المنثور للسيوطي، ص:١٣٤.
(٢٥) البحار للمجلسي:ج٥ص ٢١١.
(٢٦) الكوثرية الخالدة، ص: ١٧.

قائمة المصادر والمراجع

- احلى عشرين قصيدة حب في الادب العربي، دار العودة، بيروت، مكتبة مدبولي القاهرة، ١٩٧٣م - ط١.
- أعيان الشيعة محسن الامين، حققه واخرجه حسن الامين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، دار احياء الكتب الاسلامية، ايران، قم المقدسة.
- الدرر المنثور في التفسير المأثور، عبد الرحمن السيوطي، طبعة نجدة نجيب، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م.
- ديوان احمد شوقي، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ديوان السيد رضا الهندي، جمعه موسى الموسوي، راجعه د. عبدالصاحب الموسوي، دار الاضواء، بيروت ١٤٠٩ه -١٩٨٨م، ط١.
- ديوان السيد رضا الهندي، جمعه موسى الموسوي، راجعه د.عبدالصاحب الموسوي، انتشارات الشريف الرضي، قم، ١٣٩٧هـ، ط١.
- شعر السيد رضا الهندي دراسة في الموضوع والفن، رسالة ماجستير، ظاهر محسن جاسم، ١٤٢٣ه - ٢٠٠٧م
- شعراء الغري، علي الخاقاني، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م.

- الطليعة من شعراء الشيعة، محمد السماوي، تحقيق كامل سلمان الجبوري، دار المؤرخ العربي، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م.
- فن التقطيع الشعري والقافية، صفاء خلوصي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧م، ط٦.
- القسطاس المستقيم في علم العروض، الزمخشري، تحقيق: بهيجة باقر الحسيني، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، ١٩٧٠ م.
- الكوثرية الخالدة، شرح عبدالله الشيخ عباس الخاقاني، دار البيان العربي، بيروت، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤- ط١.
- هكذا عرفتهم، تأليف جعفر الخليلي، انتشارات المكتبة الحيدرية،١٣٨٤-١٤٣٦هـ، مطبعة شريعت،
- الورد الصافي في علم العروض والقوافي، د. محمد حسن ابراهيم عمري، الدار الفنية، الامارات، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.